The intellectual reference in the novel Albagh of the Omani writer Bushra Khalfan

Assistant Professor Dr. Ashraq Sami Abdel Nabi
Basrah and Arab Gulf Studies Center
The University of Basrah

Abstract:

The novel Al-Bagh by the Omani writer Boshra Khalfan extended to a set of references which are some related to semantics and the other is related to elements art fiction. This search attempted to consider briefly for those references and marking it as a central axis works on it to give up from being useless nonsense and relates to life.

Everything has a reference that from it derived its formation to search for reformulate for that combination of the total references.

المرجعية الفكرية في رواية الباغ للكاتبة العمانية بشرى خلفان

ا.م.د اشراق سامي عبد النبي(*)

مركز دراسات البصرة والخليج العربي/ جامعة البصرة

المستخلص:

امتدت رواية الباغ للكاتبة العمانية بشرى خلفان عبر مجموعة من المرجعيات بعضها يتعلق بالدلالة والاخر يرتبط بعناصر الحكي الفنية ، حاول هذا البحث النظر بإيجاز لتلك المرجعيات وتأشيرها بوصفها محورا اساسيا يشتغل عليه الحكي حتى يتخلى عن كونه هذرا عديم الفائدة والارتباط بالحياة ، فلكل شيء مرجع يستمد منه تشكيله باحثا عن عن اعادة صياغة لتلك التركيبة ممن مجموع المرجعيات

* Email:- ishraq_dr@yahoo.com

مقدمة:

تحكي رواية الباغ للكاتبة العمانية بشرى خلفان حكاية محبة ووثاق خاص بين الارض وأولادها ، بين الإنسانية واشارتها ، بين الشعارات الكبيرة وتلك الجموع البشرية التي تذوب تحت مسمياتها وركزت على بعض تلك العلاقات الإنسانية بفطرتها الاولى وهي واضحة ومشرقة ومنتجة للحياة .

تبدأ الرواية بمشهد الرحيل، رحيل (راشد) الأخ وريا اخته من القرية (السراير) التي ولدا وعاشا حياتهما فيها مع اهلهم ومعارفهم، رحلوا باتجاه العاصمة مسقط ، يرفض الاخوان الظلم فيتركان اهلهما بحثا عن الكرامة :

((بلاد ما ترد الظلم عن أولادها ما نبات فيها ليلة))[١]

تبدأ رحلة الرواية عبر راوٍ كلي العلم يصف بعين لا تغفل أية حركة في المشهد الروائي ثم يدخل الى تفاصيل المزاج ويعرض ما تشعر به الشخصية أو ما تحمل من تصورات وأفكار، تمتد عبر حكاية (ريا وراشد) ، حكاية عُمان الحديثة، كيف تجلت هذه الدولة وباي طريقة أو اسلوب كانت الحياة المختارة لشعبها.

توشي الكاتبة لغتها الواضحة بالكثير من المشاعر لكن من دون حشو أو إطالة خاصة وهي تستعرض تفاصيل الحياة في هذه البقعة من الارض، كيف يتواصل الناس، وبما يتحدثون، كيف وماذا يأكلون باي البيوت يسكنون ومن أين تأتي تصوراتهم عن الحياة، وهي بلا شك وظيفة السرد المعاصر الذي صار يعد وثيقة اجتماعية وتاريخية تسجل بحرفية وصياغة ماهرة حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم

المرجعية

تأتي هذه الكلمة من الأصل اللغوي (ر، ج،ع)وهي بحسب معاجم اللغة تعني العودة إلى المنبع ، أي رجوع الشيء إلى المكان أو الموضع الذي كان فيه. [٢]

وليس ببعيد عن المعنى اللغوي للكلمة تقع المرجعية بوصفها مصطلحا سردياً على الفكرة نفسها، أي فكرة البحث عن الأصل ونسبة الخطاب الروائي اليه فالمرجعية هنا هي " العالم الذي يحيل إليه ملفوظ لغوي، علامة منفردة كانت أم تعبيراً مركباً، ويكون ذلك العالم إما واقعياً موجوداً حاضراً وإما متخيلا لايطابق أي واقع خارج التعبير اللغوي وهذا يستلزم بالضرورة من يدرك ذلك العالم أو يمثله ، ثم تنتج الدلالات التي يمكن أن يعبر عنها العالم المرجعي المعروف في التعبير [٣]

إن إرجاع الكلمة أو الفكرة في الرواية الى أصلها هو شكل من أشكال الدراسة الثقافية التي تحاول استجلاء النصوص الأدبية والبحث فيها بوصفها وثائق تاريخية او اجتماعية توضح طريقة المؤلف الحقيقي في توجيه السرد وغاياته التي اضمرها لكنه وجه التمثيل السردي باتجاه تحققها في ذهن القارئ، فالكتابة الروائية في الغالب هي تمثيل ومحاكاة لفكر الإنسان وتحولات المجتمع وصور الاقدار.

اعتمادا على ذلك فان متابعة المرجعية التي تتحرك على وفقها الأحداث وتتبناها الشخصيات تعد قراءة ثقافية تبحث وسائل الرواية المضمرة لمقولات موارية لا تبدو علنية أو واضحة، لكنها ضرورية لجعل النص الروائي مزيجاً متفاعلاً فيما بين عناصره ودلالاته الفكرية والسياسية والتاريخية، الأمر الذي يفتح آفاق الحوار الفكري مع المتلقي.

لذا تبدو عملية البحث عن مرجعية العمل الادبي محاولة لاستجلاء الخطاب وتفكيك أدواته وترتيب مصادر اعتماده لتلك الفلسفة التي يحاور بها المتلقي بطريقة مخفية عبر التمثيل الروائي لتخييل يصنع عوالم وشخوصاً وأحداثاً وبيئاتٍ وخطاباً موازياً لا يعلن تماماً ماذا يريد ولا كيف يوجه مزاج المتلقي وهو يفّك رموز شفرات الرسالة المخفية عبر اللغة والسرد والفضاء .

ويمكن تقسيم هذه الدراسة إلى :

المبحث الأول

المرجعية الدلالية والفكرية في النص : من أين جاءت الأفكار والدلالة في الرواية ويمكن تحديد هذه المرجعيات اعتماداً على النص الروائي ونسبة تكرار هذه الأفكار .

١_ الخطاب الديني :

ليس من الغريب أن نجد رواية تتحدث عن عُمان في بداية نهضتها معتمدة بجانب كبير على الخطاب الديني الإسلامي بصيغته الفطرية البسيطة، فالشخصية الرئيسة في الرواية (ريا) التي خرجت مع أخيها من قريتها. وكانت قد ورثت العلم عن أبيها الذي تعمد تعليمها القرآن والأحاديث فيما علّم أخاها راشد أصول الفلاحة وتهذيب النخل والكد في الأرض. وقد تمحور جل الخطاب الديني بكلمات مباشرة من القرآن والأحاديث النبوية أو باستخدام وصف للشعائر الدينية والقيام بها بوساطة الشخصيات : كالصلاة والصيام وتلاوة القران.

إذ تبدأ مشاهد الرواية بهذا السرد :

" جمعت ما يملكان من تمر وقهوة ولفت ثيابها على مصحفها، ربطت صرتها بثلاث عقد وتمتمت بالدعاء ونفثت فيها حتى لا يضيع ، لبست شيلتها، وانتظرته عند الباب ليجهز ناقته[٤]

يكشف هذا المشهد الذي تفتتح الرواية به رحلتها السردية اهتمام الشخصية العالي بالمصحف فهي تلفه وتحمله معها في رحلتها . والبناء هنا " يكون على مستوى التمثيل الذهني وليس على مستوى ما يربط بين المرجع في العالم الحقيقي اللغوي [٥]

وتقوم عملية التواصل السردي في الرواية هنا على نوع من الميثاق والعهد الضمني بين الكاتب والمتلقي الذي يفترض وجود آلية واضحة تستند إليها جميع العناصر في المشهد السردي من أفكار وشخصيات , وفضاء هذا العهد يوثق لعالم متخيل يصنع حدوده ويرسمها داخل اللغة مفترضاً وضع إطار ثقافي مشترك يجعل من الإحالة أو المرجع الفكري المذكور صيغة من صيغ توجيه القراءة والسيطرة على استقبال وتفاعل المتلقي الذهني لها .

وفي موضع آخر يذكر الصوت السردي في الرواية " ثم همست تردد آيات من السبع المنجيات كما علمها أبوها بعد خروجه من أربعين خلوته الأخيرة ، قال لها : الله قاضي الحاجات لا يرد طلبا لعبده إن أحسن النية [٦]

تتكرر الإحالة الدينية بإلحاح بصفة خاصة في بداية الرواية إذ تواجه الشخصيات الرئيسة فيها محنة تستلزم الاستعانة بالله واللوذ بقدرته للخلاص من تجربة صعبة ومريرة في الغربة فترك بعدها الأهل والبلاد . إلا أن المفاجئ هنا للذهنية العربية بشكل عام هو التصاق العلم الديني بما يشمل من حفظ لآيات الله والأحاديث أو تفسيرها كان منوطاً (بريا)الفتاة بينما ظل راشد الأخ يعاني من الجهل الشديد في هذه الأمور، "ولما كان النص السردي ينهض على منطق الإيهام بصدق المسرود وكانت مقولة الصدق لا تستلزم بالضرورة التماثل أو المطابقة بين محتويات النص والواقع الخارجي فإن صدق النص ينبثق من إحلال الخيالي الإبداعي في ذهنية المسرود له لتبقى هناك مسافة محدودة بين متواجدات الواقع وبين فنية هذا الاخير.[٧]

وبالأحوال كلها فإن الخطاب الديني أو استعمال مفردات مثل الصلاة والتلاوة وكل الطقوس الخاصة بالإسلام وردت كثيراً على ألسنة أغلب الشخصيات في الرواية وبالطبع بشكل خاص وأكثر دلالة للشخصية الرئيسة فيها ؛ وتبدو فكرة الميل نحو الخطاب الديني على ألسنة الشخصيات واضحة جداً في أغلب الكتابة الخليجية الروائية لاسيما تلك التي تحاول الاقتراب أكثر من بيئتها والإنصات بطريقة أوضح لطبيعة الفرد فيها وكما هو معروف نقدياً "فإن استعمال النص الديني في الرواية جاء لتحقيق أغراض فلسفية وفكرية وأيديولوجية أو فنية جمالية...توجه الدلالة وتمكن القارئ من التعامل مع المعاني الخفية التي تكشف الوجه الخفي للواقع. [٨]

٢_ **التاريخ** : تحدثت رواية الباغ للكاتبة العمانية بشرى خلفان عن تاريخ عُمان عبر الحكاية الأساسية لراشد وأخته ريا، وحين نشير إلى التاريخ نعني به هنا التاريخ السياسي وليس الشؤون الاجتماعية التي تتعلق بكيفية حياة الناس في ذلك المكان وفي تلك الحقبة وعادة ما

يكون "الكشف عن المنظور الفني للروائي من خلال القضايا التاريخية التي طرحها. ومحاولة التعرّف على مدى تفاعل الروائي مع قضيته الوطنية والقومية العربية، والبحث عن الأبعاد الدلالية وراء اعتماده السرد التاريخي. (٩)

من ذلك قولها :

" كان عدد الجنود فيها لا يتجاوز الثمانين عسكرياً، ويشرف عليهم ضابطان انجليزيان، الميجور كوليرج والكابتن هامفنست ، الذي انضم اليهم معاراً من الجيش البريطاني خصيصاً لغرض تدريب كتيبة قوة الباطنة الميدانية. (١٠)

او قولها :

" وصلنا الخبر ،السلطان مالقى بد يماشي الأنجليز ووافق على الانسحاب ، لكن القبائل تراها ماراضية ، ردت بلدانها وصورة السلطان وهيبته مكسورة في عيونها ترى الانجليز مابغوا يدخلو الحرب ، انت تعرف الحرب خساير ، يموت فيها كثير من الناس والعسكر ، القنصل قال مافي فايدة من الحرب كان قدرنا نحل الموضوع بالتفاهم (١١)

ينتمي راشد وهو الشخصية المحورية في الرواية إلى عالم العسكر من خلال دخوله الحرس السلطاني وبعد أن أثبت شجاعته ورباطة جأشه يتدرج في الرتب العسكرية ماراً بأغلب الحوادث السياسية والعسكرية التي مرت بها عُمان الحديثة لاسيما في حقبة الثورة التي تولى الجيش اخمادها والسيطرة عليها ثم تولي السلطان قابوس الحكم عام ١٩٧٠ ويتوجه بخطاب مؤثر نحو الشعب العماني واعداً إياهم بالاستقرار والرفاهية وتعد تلك النظرة التاريخية لتاريخ عمان المعاصر محاولة لاسترجاع الذات والهوية العمانية والبحث عنهما .

يمكن أذن أن نشير إلى اتخاذ مثل هذا النوع من الروايات من التاريخ ذريعة بهدف الوصول الى أمثولة درامية تقول ما يحدث ، ليس ما يجب أن يحدث ، فالرواية تعد محاولة لتنظيم الحاضر وإقامة علاقة مع الماضي بهدف أن يكون الماضي في خدمة الحاضر وعاملاً من عوامل اكتشاف واقعه. (١٢)

٣ الخطاب الفكري والايدلوجي

تنقل رواية الباغ رؤى أيديولوجية متعددة تجعلها في مواجهة بعضها كما في الواقع الذي تعيشه الدول العربية في تلك المرحلة ، ففي العائلة الواحدة من الممكن أن يوجد أكثر من انتماء فكري واتجاه ايدلوجي مما يجعل المواجهة دائما حواراً حاد النغمة، بالنسبة للرواية فإن التركيز على الموضوعات الفكرية السياسية المعاصرة كان من خلال النصف الثاني من الرواية أو بعبارة أكثر دقة بعد التقدم بالسرد في الحكاية إذ برزت شخصية ابن ريا المتعلم الذي سافر إلى الكويت لإتمام تعلمه، هنا بدأت الأسئلة تكبر والإنصات يتسع لما هو أبعد من القرية أو الحارة بشكل خاص مع بداية سطوع الإعلام العربي القومي الذي كانت تتزعمه مصر ويجد صداه في باقي الدول العربية والكويت طبعا واحدة من هذه الدول.

فمثلا ينقل الحوار بين أبو زاهر وصديقه عتب الأخير عليه لأنه أرسل ولده الى الكويت قائلا :"هناك أُمور كثيرة وأنت تعرف الكويت فيها القوميين بو مع عبد الناصر والامام

يجيب الأب :القوميين في كل مكان التو ، من البصرة لين الجزائر ، والدنيا كلها مع عبد الناصر (١٣)

"لم يكونوا يعرفون أكثر مما تبثه إذاعة صوت العرب ،التي كان الجميع يتحلق حولها ليل نهار في مدن الوطن العربي وقراه ....منتشين بالنصر القادم ، فرحين بعودة فلسطين التي باتت على مرمى غارة أو قذيفة ، تتعالى الضحكات ويكثر المزاح وتتحول الدروس الى فلسطين وعبد الناصر ، وكما الضحكة في الإعلام ترفرف في سماء المدرسة علم فلسطين وعلم الكويت.(١٤)

تنقل الرواية مشهداً لاجتماع مجموعة من الطلبة في مكان أو بيت أو شقة ومتابعتهم أخبار الحرب عبر الإعلام العربي الذي كان بعيداً عن الحقيقية وعن وضع الأرض في المعركة ، ثم بعد حدوث النكسة كانت الأسئلة والمرارة كبيرين بحجمها ، "أن عددا كبيراً من الروايات اقتربت من الراوي "البلزاكي"، الذي يصدر أحكاماً عن الوجود والعلاقات البشرية، فلا يعود بإمكاننا ونحن في غمار الحديث عن رواية ذات طابع سياسي أن ندعي روائيا محايداً لا

تحركه مقاصده الإيديولوجية، بما يحيلنا إلى شيفرة سردية عاطفية أو إجراءات روائية تنجح في بعض الأحيان في امتلاك القارئ، بل وجعله ممتثلا لقيم النص ولو على حساب قيمه الخاصة في بعض الأحيان.(١٥)

وبالفعل ناقشت الرواية تلك الأحداث التي مرت عبر حقبة زمنية هائلة التأثير على الاوطان العربية عبر الحوارات الذكية :ومنها على سبيل المثال " اسمعني ، نحن ما انهزمنا بسبة عبد الناصر ، لكنك غضبان منه لأنك مثل غيرك سويت منه رب ، وحسبت انه بيديه النصر ، والعزة ، والكرامة ، والمستقبل، والتحرير ، كل شيء خليناه في ايد رجل واحد ، هو يفكر عنا وهو يقرر عنا وهو ينفذ عنا ، نحن غرينا عمارنا ، وحملنا الرجال فوق طاقته (١٦)

المبحث الثاني

المرجعية الفكرية عبر العناصر الفنية للرواية ويبحث هذا القسم من الدراسة في مرجعيات خاصة تفترضها الرواية عبر اعتمادها للتأويل وابتكارها لشخصياتها في الزمان والمكان عبر سلسلة من المكونات السردية، فلكل رواية بنية تحتية تسير الأحداث فيها على وفق منطق خاص حاولت بعض المناهج السردية متابعته مثل المنهج السيميائي وقد ناقش هذه الفكرة الباحث الفرنسي (كلود بريمون)في كتاب منطق الحكي الذي صدر عام ١٩٧٠الذي وضح فيه تقديم متتالية لمنطق الحكي وطرق اشتغاله، لذا يميل النقاد الذين يتبنون هذا المنهج على الاعتماد على النص نفسه للبحث عن مرجعياته من وجهة نظرهم .

يركز هذا المبحث على وجهة نظر نقدية تقترح أن ثمة اختلاف بين الواقع بتفاصيله وبين ما تقدمه الرواية بوصفها عملا تخييليا يحمل تصوراته الخاصة من خصوصية تشكيله الفني ، فالواقع داخل الرواية له منطق خاص ينتمي لنمط تفكير معين يتبناه الراوي ، وهذا ما يقصد المبحث الثاني فهم آلية اشتغاله ، اشتغال بعض عناصر السرد داخل الرواية وتوجيهها لخدمة وجهة نظر أو فلسفة معينة ،وسيعتني المبحث بعنصرين من عناصر السرد هما (العنوان ، والشخصية).

١ _ العنوان

لطالما شكّل العنوان موجهاً من موجهات القراءة، لأنه يثير الخيال ويفتح أفق التلقي تجاه مرجعيات معينة خاصة به فهو (ثريا النص)كما يقول القاص العراقي (محمود عبد الوهاب) في كتابه عن العنوان، الثريا التي تمنح ما حولها كل الضوء ليبدو واضحاً براقاً بالمعنى، في هذه الرواية موضوع البحث كان للعنوان بوصفه عتبة دلالية أولى خصوصيته فكلمة (الباغ) وفق المصادر اللغوية هي كلمة فارسية تعني بستان ، وحين نريد تعريفها في اللغة الفارسية نضيف المقطع (جه) الذي يعمل في المفردة ما تقوم به أدوات التعريف وخاصة أل التعريف العربية .

ترتبط مفردة الباغ في هذه الرواية بشخصية البيبي وهي السيدة البحرينية التي تزوجت من تاجر عماني فلما سافر ولم يعد ساومها أولاده من زوجته الأولى على ما ترك من أموال، فلم يتبق لها إلا هذا البستان الذي تعيش فيه مع بناتها فيما تدبر أمور حياتها بما يرسل لها اهلها من أموال وهدايا من البحرين . وعند الانتهاء من قراءة الرواية تشكل هذه الشخصية ثقلا محورياً في الرواية لا تفتح الاحداث ولا تنهيها ولا توجه السرد فما الذي جعل الرواية تختار هذا العنوان " يرى إيكو أن مفتاح التأويل يلتصق بالعنوان الروائي وقد يأتي مجازياً استعارياً بحكم الشاعرية فالعنوان يمثل هاجساً من نوع ما فقد يرتبط بالنص ارتباطاً شكلياً وعند قراءته نعجب بتركيبه وحسن صياغته لما يمارسه من دور التشويش على الأفكار وهي تقنية عدها إيكو من التقنيات التي على العنوان أن يؤديها كإحدى وظائفه. (١٧)

وهو ما يفصح عنه الاستعمال المشوش والغريب للعنوان فخلال القراءة ومع بداية اكتشاف الباغ تصل رسائل ضمنية للمتلقي توحي بأن لهذا المكان توهجاً خاصاً يستحق من خلاله أن يكون العنوان محط الانتباه والعلامة المميزة لكنه سيكتشف فيما بعد أن العنوان يكتسب هنا بعداً تأويلاً فالباغ يشير إلى عُمان فهي البستان الصغير المسور والذي تبدو علاقة ساكنيه مرتابة مع الخارج ومتوحدة مع هواجسها ، إذ ثمة انفصال محسوس بين البيبي مالكة الباغ والتي تسكنه هي وبناتها وبين الآخر الذي لا تعرفه .

٢- الشخصية :

ما مرجعيات الشخصيات في رواية الباغ ، هل استطاعت الكاتبة تحديد خطاطة من العلاقات والسلوك والحوار تتناسب مع الأفق الثقافي والمرجعية الفكرية لكل شخصية أم تداخلت لديها الرؤى واختلفت خلال متن الرواية صعوداً وهبوطاً مع البنية القيمية والفكرية للشخصية، في مقالة نقدية مطولة عن رواية الباغ نشرها الناقد جابر عصفور في جريدة الأهرام يقول :

" يبقى السؤال: من البطل الأساسي في هذه الرواية؛ هل هو «راشد» الذى قرر أن يصحب أخته معه تاركًا أرض الظلم؛ لأنه حر لا يطيق الظلم؟ أم هي «ريا» التي قررت أن تمضى مع أخيها فرارًا من الظلم إلى النهاية الحتمية؟ أم ما يترتب على فرارهما معاً من زوج أو ابن؟ الحق أن البطل الأساسي الذى يفرض حضوره الطاغي في هذه الرواية هو «ريا» التي تكاد تتحول إلى موازاة رمزية للمرأة العُمانية التي قامت بأدوار متعددة عبر تاريخ عُمان الحديث[١٨]

شكّلت هذه الرواية بحرفية واحساس عالٍ شخصية نسائية فريدة لها خصوصية محلية تماماً مثلما لها امتداد إنساني عميق جعل منها شخصية غنية رغم بساطتها ، ف(ريا) التي نشأت في القرية وكانت الأم الثانية لأخيها راشد بعد رحيل أمها والتي تعلمت من أبيها أصول الدين وحلاوة التلاوة لآيات القران ، هي إنسانة تنطوي على عظيم الإحساس الذي يمتد بين احرف الرواية مانحاً اياها سراً طاغي الحضور لكنه عصي على التحديد علاقتها بالأخ كانت علاقة محبة صافية وارتباط عميق مثلما جمعتها المحبة بكل الناس الذين صادف وجودهم في حياتها مثل شخصية (العودة) المرأة التي استقبلت وجودها في بداية غربتها في مسقط تقول ريا في وداعها في لحظة رحيلها الأبدي عن الحياة :

" جلست ريا في صدر الحوش تبكي العودة كما لو أنها تبكي امها التي لم تخبر وجودها وموتها إلا من خلال الاخرين ، تبكيها بكل ما فيها من خبرة الفقد ومرارة الغياب "[١٩]

لقد امتدت مرجعية هذه الشخصية في الرواية بطريقة واحدة حفظت السمات الشخصية العامة لها على الرغم من تبدل الأحوال وتطور الشخصية ذاتها، لكنها ظلت مصدراً لأمرين الأول هو الدين وخاصة تلاوة القران وتعليمه للصغيرات فيما بعد :

"تحب ريا سورة مريم ، تحبها وتشعر بالياء الممدودة فيها تمتد من قلبها إلى حنجرتها حتى تصعد خفيفة في انفراج شفتيها وكأن كل كلمة دعاء وكأن كل مد فيه نداء لها.. يتغير الحرف آخر الآية فتتحول الياء الممتدة إلى دال ، وبعدها ألف حازمة ،وان كانت ريا تجد فيه حزما مختلطا بحنان كما كان حزم ابيها معها ، ثم تختم السورة بحرف الزاي والالف الممدودة بعدها في التذكير ".(٢٠)

أما الأمر الثاني الذي شكَل هذه الشخصية في الرواية هو قدرتها على المحبة وعلاقتها المرهفة مع الشخصيات الاخرى :

علاقتها بالله محبة " الله هو النور وكلامه نور، ولو النور ماشق الصدر واستقر ،كل ذا العلم مايله معنى "(٢١)

علاقتها بأخيها علاقة محبة عميقة وارتباط قوي جداً

"كانت طفلته ثم صارت أخته ثم كبرت فصارت وكأنها أمه"(٢٢)

"يعرف قوته ، ويخبر هشاشتها، ضعفها في خوفها من فقد من تحب ، خوفها على راشد الذي لا يعادله إلا خوفها على زاهر ، قوية وحكيمة هي إلا في هذا الحب "(٢٣)

اما علاقتها مع أبنها زاهر فقد تجاوزت صورة الأم المعتادة وفاقتها بطريقة الارتباط والعاطفة والمشهد الأخير في الرواية كان يصف مشاعرها بعد أن سجن زاهر وقدم للمحاكمة بتهمة الانتماء الى الثوار وتعاطي الأفكار الشيوعية

" قلبها ثقيل ، يكاد يكون حجراً يسقط في كل خطوة وتكاد من فرط ثقله ان تفلته في الخطوة التالية ليتدحرج إلى ما لانهاية .

تسر في خاطرها قرابين كثيرة تذبحها عند قدميه لو أنجاه الله مما لا نجاة منه

هل تعرف ذلك ؟ هل تعرف أن سيرها إليه يأس ورجوعها يأس ؟

تردد اسماء الله التسعة والتسعين كلها كما ورثتها عن أبيها في الدعاء ، ثم تتذكر تهمته ، فيتردد قلبها "[٢٤]

التهمة التي تداهم قلبها هي أنه (شيوعي) أو كما أخبروها (كافر) فتغص في قهرها ، هي الممهورة بكلمات الله والسائرة في درب المحبين الطائعين ، كيف تدعو لولد وحيد خرجت به من الدنيا وهو متهم بنكران الله ؟!

يذكر جابر عصفور في مقالته أن هذه الشخصية أسطورية مرتبطة الى حد بعيد بتلك الشخصيات العالمية في الروايات الكلاسيكية كالأم الخالدة في رواية (دستوفسكي) .

"فالروائي المعاصر وإن سلط منظار سرده على شخصيات بسيطة وعادية من مختلف الشرائح فإنه تحول إلى ما يشبه الأنتروبولوجي والباحث في التراث الإنساني ينهل من الأساطير والرموز وينفتح على مختلف الأشكال التعبيرية محطما الحدود بين الأجناس الأدبية "[٢٥]

شخصية راشد : تدور شخصية الأخ راشد حول مفهوم الكرامة وتحدي الظلم ، اذ تبدأ الرواية بمشهد الرحيل بسبب الظلم ثم تمتد هذه الشخصية عبر أحداث وصعاب طورتها لكن عبر المرجع القيمي والأخلاقي ذاته " حسب فيليب هامون أن الشخصية، إضافة إلى كونها وليدة مستوى عميق، لا يمكن الإمساك بمدلولاتها وملء بطاقتها إلا من خلال وجود عناصر مهمة تسهم في بنائها، وهي القراءة و السنن الثقافي.

" ياريا البلاد ماجبل وحصى ونخل وفلج ..يتكسر صوته لكنه يكمل البلاد ناس تحبك وتفقدك وتترجاك وتحامي عنك وما تهون عليها "[٢٦] تقود الشخصيات أحداث الرواية وتمنحها بعدها الواقعي المقنع فالشخصية :"كائن له سمات إنسانية، ومنخرط في أفعال إنسانية، ويمكن أن تكون رئيسية أو ثانوية، ديناميكية أو ثابتة، متسقة أو غير متسقة، مسطحة أو مستديرة، ويمكن كذلك تحديدها على أساس أعمالها وأقوالها ومشاعرها، وطبقا لاتساقها مع الأدوار المعيارية، أو طبقا لاتفاقها مع مجالات محددة من الأفعال، أو تجسيدها لبعض العوام"[٢٧].

يمكن تحديد مرجعية راشد من خلال تحديد خطابه وسلوكه وهو كما يتضح في الرواية كلها يتعلق بصلابة الرأي والعناد ورفض الهوان :

" قال لأبيه في سره واثقا سأحمل بندقية السركال منذ الغد يا ابي ولن نهون بعدها ، انا وريا لن نهون سأحرص على ذلك "[٢٨]

كما أنه كان حذرا قليل الكلام

"صارا صديقين ، لكن راشدا لم يتخل عن حذره ابداً معه ، ولم يحك له عما حدث لهم في السراير ، لم يخبره عن جور عمه وظلم الأهل وغدرهم "[٢٩]

صرخ في حبسه " هذه بلاد لا تقبل الضعيف ولا تحترم المحتاج ، هذه بلاد ظلام يا أبي ، الجبابرة لا يأتونكم من الخارج، انتم تلدون الجبابرة ، من أرحام هذه الأرض يخرجون وينسلون ويفسدون "[٣٠]

لم تغفل شخصية راشد في أية تفصيلة من تفاصيل سلوكها و أفعالها أو ردات فعلها هذه المرجعية فهي أبنة الارض حرة لا تعرف الانحناء الا للخالق ولا تعرف اللين إلا للعطف والمحبة "وحين تعتمد الرواية في تصميمها الهندسي على البداية وذروة النهاية، وتستند إلى الترابط بين الأحداث والتفاعل بين الحدث والشخصية بطريقة تمنح الأحداث أفقا واضح التسلسل وفق مبدأ العلِّية والسببية، ويؤدي إلى تطور الشخصية وتناميها، وكل هذا يؤكد إلى درجة التوازن في العلاقة بين الحدث والشخصية، والشخصية والزمان والمكان، وهو ما يصف البناء بالتماسك والترابط والتدرج الفني"[٣١]

تستلم شخصية راشد في المشاهد الأخيرة من الرواية إشارة أكيدة أن ثمة وشيجة عميقة بينه وبين شخصية زاهر ابن أخته ، رغم اختلاف التوجهات وتعددها لكن المنطلق واحد والطريقة واحدة :

" بس ابغاك تخبر امي شي ، قولها اني ما احب حد كماها في الدنيا .قول لها لاتبكي،قول لها بسها عاد من البكي ، قول لها زاهر حر ولد حرة ، والحر مايقبل الظلم .[٣٢]

سمع راشد جملة زاهر الأخيرة فشعر بتصاعد الغصة الى حلقه،ثم باللم يبدأ من مكان إصابته القديمة في وادي بني حبيب وينتشر بين ضلوعه .

تجمع الدمع في عينيه وماعرف كيف يعالجه فنكس رأسه ومارفعه حتى أتاه صوت زاهر ثانية :

قول لها الحر مايخون العهد ولو على رقبته، قول لها تسامحني ،قول لها تسامحني .[٣٣]

كان هذا الحوار بين راشد الخال وهو يعمل عقيداً في الجيش الحكومي للسلطان ومع زاهر ابن اخته الثائر مع الشيوعين .

" ان الكلام على رأي فاولر يرد مشوبا بذاتية المتكلم مهما كان نزوعه إإلى الحياد والموضوعية ، فهو _في الرواية أساسا _ينأى عن كونه مجرد نقلا للأخبار ليصبح قولا فنيا مفعما بمعتقدات القائل ومواقفه وأحاسيسه يجريها على جهات شتى.[٣٤]

أبدت هذه الشخصية ممانعة وقوة واضحة في الوقوع تحت أثر الانفعال والعاطفة ،لكنها في آخر الحكاية تعود إلى ذات النسق العاطفي العام الذي التبست في داخله كل الأفكار والمرجعيات ووظفت من أجل خدمته ودعمه .

خاتمة ونتائج :

امتدت رواية الباغ للكاتبة العمانية بشرى خلفان عبر مجموعة من المرجعيات بعضها يتعلق بالدلالة والآخر يرتبط بعناصر الحكي الفنية ، حاول هذا البحث النظر بايجاز لتلك المرجعيات وتأشيرها بوصفها محورا أساسياً يشتغل عليه الحكي حتى يتخلى عن كونه هذراً عديم الفائدة والارتباط بالحياة ، فلكل شيء مرجع يستمد منه تشكيله باحثا عن إعادة صياغة لتلك التركيبة من مجموع المرجعيات

١- حققت رواية الباغ تماسكا لافتا عبر صياغة حكاية ارتكزت على التاريخ واهتمت به بوصفه أحدى أهم الوسائل لمعرفة الحاضر وفهم تفاصيله.

٢- ثمة مراوغة فنية تختبئ تحت حرفيتها إمكانية عالية في التخطيط لما يقال عبر عناصر السرد وهي تعتمد على حركة فنية ولغة موحية وسلسلة.

٣- كانت الرواية مقنعة إلى حد بعيد في اعتماد مرجعيات خاصة بها بالرغم من ارتباطها ببعض الأفكار الخارجية إلا أنها طوعت لخدمة الحبكة الرئيسة والأحداث مما منح هذا النص الروائي ثباتا فنيا عاليا .

الهوامش :

١- رواية الباغ،بشرى خلفان،مسعى للنشر والتوزيع،الطبعة الاولى ،اكتوبر ٢٠١٦ ص١١.

٢- معجم لسان العرب، ابن منظور ،ج ٦ ، باب الراء ، ٦٣، دار صادر ،٢٠٠٣.

٣- مرجعية بناء النص الروائي ، الدكتور عبد الرحمن التمارة ، دار ورد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٣ ،عمان ص ٥٢.

٤- الرواية ص ١١.

٥- المرجع والإحالة بحث منشور ، خليفة غوشاش ، جامعة المسيلة ،مجلة الممارسات اللغوية العدد٢٨ ،٢٠١٤، ص ١٢٢.

٦- الرواية ص ١٣.

٧- المرجع والإحالة ص١٢٧.

٨- التراكم النصي وتقنية الدلالة 'النص الديني في الرواية بين حرفية المرجع وانحراف الدلالة' مبروك كواري ،مجلة الدراسات ،جامعة بشار ،ص ٦٢.

٩- السرد التاريخي بين الواقع والمتخيّل في رواية "الجنرال خلف الله مسعود (الأمعاء الخاوية)، محمد الكامل بن زيد رسالة ماجستير من جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب عام ٢٠١٥.

١٠- الباغ ص ١٠٢.

١١- نفسه ١٠٧.

١٢- الرواية بين ضفتي المتوسط ،التعدد اللغوي في رواية سنونوات كابول لياسمينه خضرا ، د, حسن كرومي ، جامعة بشار ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، ٢٠١١.ص ٦٠.

١٣-الرواية ص ٢٢٦.

١٤ – نفسه ٢٥٦.

١٥– ندوة للناقدة رزان إبراهيم من الأردن عن الهم السياسي في الرواية العربية نقلتها مجلد الغد افي ٢١ ايلول ٢٠١٧.

١٦ –الرواية ٢٦٤.

١٧–العتبات في رواية أعراس آمنة تحت شمس الضحى للروائي إبراهيم نصر الله ، موفق مقدادي ، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد الأول العدد ٢ ٢٠١٤.

١٨– الاهرام اليومية ،الجمعة ،السنة ١٤١ العدد ٤٧٧١٦. ٢٨ يوليو ٢٠١٧.

١٩– الرواية ٢٣٢.

٢٠– نفسه ١٦٨.

٢١ – نفسه ١٦٨.

٢٢– نفسه ٩٤.

٢٣– نفسه ١٤٤.

٢٤– نفسه ٣٣٢.

٢٥– في الرواية العربية المعاصرة،الكبير السدايسي مجلة رأي اليوم ،٢٨ ،٢٠١٥.

٢٦– الرواية ص ٤٧.

٢٧– قاموس السرديات– تأليف جيرالد برنس– ترجمة السيد إمام– منشورات ميريت– ص٣٠/٣١.

٢٨– الرواية٥٤.

٢٩– نفسه ٦٨.

٣٠– نفسه ١٠١.

٣١– المشهد الثقافي العماني فوضى لكن منظمة ،إبتسام عبد الله بن مبارك الحجرية ،من أوراق ملتقى الإمارات للإبداع منشورة في الملحق الثقافي لصحيفة الاتحاد الإماراتية ،١٢ يناير ،٢٠١١.

٣٢– الرواية ٣٢٨.

٣٣– نفسة ٣٢٨.

٣٤– علاقة المكان بجهة القول في الخطاب الروائي المغازلي رواية ثقل العالم لسعيد بوكراصي أُنموذجاً ، عبدالمنعم بن سيجة ،ص١٨٧.

قائمة المصادر والمراجع :

- الباغ ،بشرى خلفان،مسعى للنشر والتوزيع ، ٢٠١٦.
- الباغ ،جابر عصفور ، جريدة الاهرام ،العدد٤٧٧١٦،السنة ١٤١، ٢٠١٧.
- التراكم النصي وتقنية الدلالة النص الديني في الرواية بين حرفية المرجع وانحراف الدلالة ،مبروك الكواري، مجلة الدراسات ،تصدر عن مخبر الدراسات الصحراوية ،جامعة بشار .
- السرد التاريخي بين الواقع والمتخيل في رواية الجنرال خلف الله مسعود (الأمعاء الخاوية)، محمد الكامل بن زيد ،رسالة ماجستير من جامعة محمد خيضر بسكرة ،كلية الآداب ،عام ٢٠١٥.
- علاقة المكان بجهة القول في الخطاب الروائي المغاربي ،رواية ثقل العالم لسعيد بوكرامي أنموذجا ،عبد المنعم سيجة ،مجلة الدوحة ،٢٠١٦.
- العتبات في رواية اعراس امنة تحت شمس الضحى للروائي إبراهيم نصر الله ،موفق مقدادي ،مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ،المجلد الأول العدد ٢ ،٢٠١٤.
- الرواية بين ضفتي المتوسط ،التعدد اللغوي في رواية سنونوات كابول لياسمينه خضرا ،د.حسن كرومي ،جامهة بشار ،المجلس الاعلى للغة العربية ،الجزائر ،٢٠١١.
- قاموس السرديات ،جيرالد برنس ،نرجمة السيد امام ،منشورات ميريث،مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة ،٢٠٠٣.
- المرجع والاحالة ،خليفة غوشاش ،جامعة المسيلة ،مجلة الممارسات اللغوية العدد ٢٨، ٢٠١٥.
- مرجعية بناء النص الروائي ،الدكتورعبد الرحمن التمارة ،دار ورد للنشر والتوزيع ،٢٠١٣.
- معجم لسان العرب، ابن منظور ،ج ٦ ، باب الراء ، ٦٣، دار صادر ،٢٠٠٣.
- ندوة عن الهم السياسي في الرواية ، د.رزان إبراهيم ،الأردن ،نقلتها صحيفة الغد الأردنية .